

بل ضرورية جدا

للأستاذ عباس محمود العقاد

تعودنا أن نسمع أن الفنون الجميلة من الكليات التي يأتي دورها بعد العلم والصناعة في الأهمية، وفي مقالكم المشار إليه تقولون إن علينا أن نبدأ بالفنون الجميلة والرياضة لتعلم الإرادة والعمل، فهل لكم أن تبيروا الطريق لنا بالتوفيق بين القولين...، الاسكندرية
صالح شحاته

الحق يا صاحبي أننا في عصر نحتاج فيه إلى غلبة وإفادة لجميع الالفاظ التي طعننا بها زمناً في مطلع نهضتنا الحديثة، ومنها ألفاظ الضروريات والكليات وتقديم الأهم على المهم والمفاضلة بين العلوم والفنون، وسائر هذه المحفوظات التي خلت من المدلول لكثرة تكرارها واكتفاء الأذان بسماعها دون التفكير فيها.

فن الواجب أولاً، أن نفرق بين الفرد والأمة فيما هو من الشؤون الضرورية وما هو من الشؤون الكيالية.

فالفرد لا يشترط فيه أن يستوفي جميع المزايا الانسانية والملكات الحية، وليس من اللازم ولا من المستطاع أن يكون قوياً وذكياً وجيلاً وعالماً وشاعراً وصانعاً وغنياً وسائساً زعيماً ومفكراً مقتدى به وإماماً متبعاً في مطالب الحياة كافة.

ولكن إذا اجتمع عشرون مليون فرد في قطر واحد فن الضروري — وليس من الكمال — أن تتوافر بينهم جميع المزايا الانسانية والملكات الحية التي تتفرق في الأفراد، وإلا كان النقص دليلاً على مسخ ذريع في التركيب وعجز شائع في عناصر الطباع. ويستوى هنا أن يكون الناقص لهما أوجداً، وفناً أو علماً، وخلفاً أو رأياً، فأنما المهم أن الملايين العشرين يتسعون لكل مزية عرفت في بني الإنسان، وإلا كانوا ناقصين في الضروريات للأمة وإن كانت معدودة بالقياس إلى الفرد من الكليات والنوافل

ومن الواجب ثانياً، أن تقلع عن تقويم المطالب

القومية بمقدار الحاجة إليها والاستغناء عنها، فإن ذلك تقويم غير صالح وغير صحيح.

فنحن نستطيع أن نعيش بغير ملكة النظر وبغير ملكة السمع أو الكلام سبعين سنة دون أن نهلك من جراء ذلك. ولكنت لا نستطيع أن نعيش بغير الرغبة وما إليه سبعين سنة ولا سبعين شهراً ولا سبعين يوماً إلا هلكنا هلاكاً لا ريب فيه؛ ولم يقل أحد من أجل ذلك إن الرغبة أغلى من البصر، وإن ملكات الحس لا تستحق المبالاة كما يستحقها الطعام والشراب.

وندع تقويم الفكر إلى تقويم السوق، فانا واجدون أن الرغبة أرخص من الكتاب، وأن التمثال أغلى من الكساء، وأن الخلية أقوم من الآنية الضرورية، وأن قيمة الشيء لا تتعلق بمقدار الحاجة إليه والاستغناء عنه، بل بمقدار ما نكون عليه إذا حصلناه. فنحن إذا حصلنا الرغبة فأقصى ما نبلغه في تحصيله أن تتساوى وسائر الأحياء في إشباع الجسد وصيانة الوظائف الحيوانية. ونحن إذا حصلنا الفنون الجميلة فأنحن بأحياء وحسب، ولا بأناسي وحسب، ولا بأفراد وحسب؛ بل نحن أناسي ممتازون نعيش في أمة ممتازة، نحس ما حولها وتحسن التعبير عن احساسها.

إن الضروريات توكلنا بالأدنى فالأدنى من مراتب الحياة، أما الذي يرفعنا إلى الأوج من طبقات الإنسان فهو ما نسميه النوافل والكليات، أو هو ما نستغنى عنه ونعيش

ولكن، كيف نعيش؟

هذا هو موضع السؤال الصحيح. فإن كنا لا نبغى إلا أن نعيش كما تعيش الأحياء كافة لحسبنا الضروريات المزعومة إلى حين: حسبنا الخبز حتى يجيئنا من ينزع منا الخبز أيضاً ونحن لا نقدر على دفاعه، ولا نطبق غير الخضوع له والصبر على بلائه.

وإن كنا نبغى أن نعيش أكمل، العيش فلا غنى إذن عن الكليات لبلوغ الكمال، ولا معدى إذن عن اعتبار الكليات من ألزم الضروريات.

ومن الواجب ثالثاً، أن نذكر ما هو العلم، الذي

يفوقنا به الغربيون قبل أن نعقد المقارنة بين العلوم والفنون .
فالعربون لا يفوقونا بالعلم ، المصنوع ، علم الطائرات
والسيارات والسفن والدبابات والمناسج والمنسوجات .
كلا ! لا يفوقنا الغربيون بهذا ، فان الشرق ليحذق صناعة
الطيارة اذا رآها كما يحذقها الغربي الماهر في عمله ، ولعله يذه
ويسبقه في الوقت والبراعة .

إنما يفوقنا الغربيون بالعلم الملحوظ لا بالعلم المصنوع :
يفوقونا بعلم الملاحظة والابتكار والاختراع ؛ يفوقونا بالعلم
الذي يحتاج إلى عين لا تفوتها الرؤية ، وبدية لا يفوتها
الادراك ، وخيال لا يفوته تركيب الصغائر وضم الأجزاء
إلى الأجزاء حتى يتألف منها المصنوع الجديد

وما هذا الذي يفوقنا به غير ملكة الحس والتخيل التي
يترجمها المصور تمثالاً والموسيقى لحناً والشاعر قصيداً أو المخترع
صناعة حديثة ؟ ما هو غير أن نحس ما حولنا ونقرن بين
إحساس وإحساس حتى نستخرج منها جميعاً صورة كاملة في
عالم العلم أو في عالم الفن أو في عالم التجارة ؟

فليست المقارنة بين العلم والفن مقارنة بين طيارة تنفع في
التجارة والحرب وتمثال لا ينفع لغير الزينة ، بل هي مقارنة
بين ملكة مستنبط لا تتم بغيره الحياة ، وملكة مستنبط لا تتم
بغيره الحياة !

وإذا فقدنا الفنون الجميلة فليس كل ما نفقده إذن هو تمثال
الرخام الذي لا يصلح لغير الزينة ، بل نحن فاقدون جزءاً من
حياتنا وجزءاً من العلاقة بيننا وبين الدنيا ، وعاشوراء عيشة
الممسوخ الأبتى المحجوب عن جوانب دنياه

إن الرجل البصير يرى الحجر كما يرى الجير مرة ، ولكنه
إذا عجز عن رؤية الحجر وهو أمامه فليس الحجر وحده
بالمفقود في نظره ، بل المفقود كل شيء يتراعى لعينه

لقد حيننا في خدمة غيرنا عصوراً طويلاً حتى أوشكنا
إذا قيل لنا : « اشعروا بالحياة » أن نطلب أجراً على حياتنا
فالرجل الذي يسأل : ما فائدة الفنون الجميلة ؟ هو كالرجل
الذي يسأل : ما فائدة العيز : وما فائدة الأذن ؟ وما فائدة
الشعور ؟ وما فائدة الحياة ؟

وإن الانسان لينظر إلى الروضة ولا يبسط يديه بعدها
إلى أحد يعطيه أجراً على ما رآه ، فلماذا يحس الجمال وهو يسأل
عن فائدة الاحساس ؟ ولماذا يعبر عن الجمال وهو يسأل عن
فائدة التعبير ؟ ولماذا يقتنى التمثال وهو يسأل لماذا أقتنيه ؟
ولماذا يسمع الغناء وهو يسأل لماذا أصغى إليه ؟

إنه ينبغي أن يصنع ذلك لأنه يحس ، وإنه يحس لأنه يحيا
فمن من ياترى يريد أجراً على الحياة ! إن كان عبداً فمن سيده
فليطلب أجراً لو كان سيد يعنى بهتذيب عبيده ؛ وإن كان هو
سيداً فهو مالك حياته وكفى أنه يحيا تعليلاً لكل عمل وترغياً
في كل مطلب وتقويماً لكل عزيز نفيس

ولئند يخطئ بعض الفلاسفة المصلحين في تقويم الفنون
فيستكثرون ما أنفقت عليها الدول والملوك والسروات من مال
وفير وجهد عنيف . كذلك أخطأ تولستوى في كتابه عن الفن
الجميل وهو نفسه قد أنفق عمراً مديداً في خدمة الفن الجميل

على أن خطأهم قريب المأخذ سهل المراجعة من ناحية
الحساب ، إذ ليس القياس في هذا الصدد أن ننظر إلى مدينة
مثل « هليوود » كم تنفق من الملايين على الروايات والممثلين !
وإنما القياس أن ننظر إلى مدن العالم كم عداها بالقياس إلى
« هليوود » وحدها أو كل مدينة جرت على مجراها

وليس القياس أن ننظر إلى الموسر كم يبذل من الألوف
في تمثال واحد ، وإنما القياس أن ننظر إليه وإلى كل فرد كم ينفق
على خبزه وكسائه وسكنه وراحته ، وكم ينفق على الفنون الجميلة
التي يهواها من تماثيل وأغان وأشعار ؟ ومتى نظرنا هذه النظرة
علمنا أن الكاليات لا تجور على الضروريات ، وأن قياس
التفقات على ما يسمى بالكاليات والتفقات على ما يسمى
بالضروريات أقل من قياس الآحاد إلى المثات

إلا أننا نعود فنقول إن الفنون الجميلة ضروريات في الأمم
وإن عدت نوافل في آحاد الناس ، وإنها ضروريات لمن يشد
« العيش الأكمل » ولا يقنع بكل عيش ، وإنها ضروريات
لمن يسأل : كيف نسود ؟ وإن كانت هباء عند من يسأل : كيف
نعيش ؟ وأحرى به أن يسأل : كيف نموت ؟ فعيش هذا
وموته سواء

عباس محمود العقاد